

وقد عرف شوقي ضيف ببعض التراجم الذاتية قديما وحديثا (ابن الهيثم، ابن سينا، ابن الجوزي، ابن شامة المقدسي، الغزالي، أسامة ابن منقذ، ابن خلدون، طه حسين، أحمد أمين)، وقدم حولها بعض العناصر الثقافية والتاريخية، مع بيان التأثيرات اليونانية والغربية التي أثرت في كتابها.

يقترح محمد عبد الغني حسن تعريفا للترجمة الذاتية قائلا: «هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث»⁽¹⁾ ويلاحظ، في معرض هذا التعريف، أن الترجمة الذاتية غالبا ما تكون مظنة الإغراق والمغالاة، تقع في شرك الحديث عن النفس والزهو بها. غير أنها إذا اعتدلت، كما يقول، «كانت أصدق ما يكتب عن رجل وأكثره انطباقا على حياته» (ص 23). غير أنه يلاحظ أن العرب والمسلمين، على كثرة ما تفننوا في كتابة التراجم والسير، «لم يفكروا في المذكرات واليوميات الشخصية إلا على حال من الندرة، ولم يفكروا في التراجم الذاتية إلا على حال من القلة» (ص 33).

وهو لا يذكر من (المذكرات) مثلا إلا (الاعتبار) لابن منقذ، ويجد من التراجم الذاتية (النكت العصرية) للشاعر عمار اليميني، وقبلها (سيرة المؤيد داعي الدعاة) بقلمه، وذلك في منتصف القرن الخامس. ثم يعرج، بعد ذلك، على التراجم التي خلفها الفلاسفة والعلماء والمؤرخون العرب (ابن سينا، العماد الأصفهاني، السيوطي، والسخاوي، ولسان الدين ابن الخطيب، وابن خلدون، والمقري..)، فلا يجد أمامه، بعد هذا، «وقد مضت القرون متعاقبة» (ص 25)، أي نص يمكن الاستدلال به على وجود هذا الفن في (عصور الانحطاط)، إلا ما كان من بعض النصوص القليلة التي ظهرت في القرن التاسع عشر (الخطط التوفيقية لعلي مبارك، تشحيد الأذهان لمحمد عمر التونسي، وكان ويكون لعبد الله النديم..). فيكون القرن العشرون، من هذه الناحية، كما قرر غيره من الباحثين عن التراجم الذاتية، بداية مفترضة للبروز الذي يجري البحث عنه، طمعا في الوفرة والتواتر وظهور بعض الخصائص النوعية، التي تتقارب، إلى هذا الحد أو ذاك، مع مثيلاتها في الآداب الأوربية، والإنجليزية بالخصوص.

فبين منطلق البحث الذي يسعى إلى إثبات وجود الترجمة الذاتية في الأدب العربي القديم، وبين مقدم القرن العشرين الذي يحققه، من خلال التأثيرات الوافدة، تتوالد الالتباسات من كل جانب، كدلالة على التردد المنهجي الذي يخيم على جميع مراحل البحث، أعني من حيث تعريف الجنس الأدبي المبحوث عنه، وإظهار